الرئيس هورد بلس

President Howard S. Bliss, D.D., L.L.D.

من الامور الغريبة ان الرجال العظام الذين يفوقون غيرهم بما يأتونهُ من جلائل الاعمال قلما يخلفون نسلاً وان اخلفوا فقلما يقوم من اولادهم من يأخذ اخذهم ويحذو حذوهم على غير المعروف من ناموس الوراثة الطبيعية . فهوميروس وفيثاغورس وهيرودوتس وابقراط وافلاطون وارسطوطاليس وسقراط وكنفوشيوس وفرجيليوس وجالينوس والكندي والفارابي والرازي وابن سينا وابن رشد وشكسبير ونيوتن ودانتي ولابلاس ولافوازيه وهلمهلتز وداروين وهكسلي وباستور وكوخ وامثالهم من مشاهير العصور الغابرة والحاضرة . واساتذتنا الذين قرأنا العلوم عليهم ولهم مؤلفات مشهورة فان ديك وورتبات وبوست — كل هؤلاء لا يذكر اسم اولاد لهم خلفوهم وحذوا حذوهم الا نادراً . غير ان الدكتور دانيال بلس منشىء المدرسة الكلية ورئيسها الاول خلفهُ في الرآسة والادارة ولده هورد بلس صديقنا المأسوف عليهِ ولم يقلّ عنهُ في امر من الامور التي اشتهر بها الا في الاجل الذي قُدّر لهُ

رأيناهُ اول مرة في صيف سنة ١٨٦٥ مع اخيهِ الاكبر وكانا غلامين صغيرين . ثم مضت السنون وهذان الغلامان ينشآن ويستعدان في اميركا لجلائل الاعمال وصاحب الترجمة بعيد عنا لا نعلم من امرهِ شيئاً مع شدة اتصالنا بوالديهِ واخيهِ الاكبر . ثم بلغنا ان اباهُ استاذنا الدكتور دانيال بلس استقال من الرآسة لكبر سنهِ فوقع الاختيار عليهِ خلفاً لهُ . وزار القطر المصري مراراً بعد ذلك فرأينا منهُ رجلاً هماماً يجتذب القلوب بلطفهِ وطلاقة لسانهِ ويرضي النفوس بسمو مداركهِ وصراحة افكاره . ترى طلعتهُ الجذابة وتسمع صوتهُ الرنان وتتمعن في اقوالهِ المحكمة فلا تتردد في الحكم انهُ الرجل الغيور الصحيح المنطق القوي الحجة الواسع الصدر المتفاني في انجاح المدرسة الكلية . هذا كان رأينا فيهِ ورأي الذين لقيهم وكلمونا في امرهِ . ثم زاد اعجابنا بهِ لما علمنا انهُ حفظ المدرسة الكلية ودولة اميركا في حرب مع الدولة العثمانية والبلاد السورية تئن من الجوع والغلاء . حفظها بعد

ان اقفلت الحكومة العثمانية كل المدارس الاجنبية واعتقلت اساتذتها او طردتهم من بلادها. حفظها وجعل الحكّام يمونونها لانهُ اقنعهم ان تلامذتها ابناؤهم وانها هي من اقوى مقومات العمران في السلطنة العثمانية. وعندنا ان من يكتب تاريخ المدرسة الكلية ليخصص من امورها امرين هما في الدرجة الاولى الاول انشاؤها على يد الدكتور دانيال بلس والثاني حفظها مدة الحرب الماضية على يد ولده الدكتور هورد بلس صاحب الترجمة

ثم مرّ بالقطر المصري في طريقهِ الى اميركا بعد ان وضعت الحرب اوزارها وامارات التعب الشديد بادية على وجههِ وظاهرة في لهجة كلامهِ فشرح لنا تفاصيل ما عاناهُ وعانتهُ البلاد السورية والخطة التي جرى عليها حتى وثق بهِ ولاة الامور. وتفصيل ذلك مما يستحق ان يدون في تاريخ المدارس ليكون مثالاً لكل رئيس يأتي بعدهُ يرشدهُ الى كيفية معالجة الشدائد حتى تلين ومقاومة المصاعب حتى تهون. ولم يخطر لنا حينئذٍ ان تلك البنية الصحيحة تنطوي على جراثيم داء عضال وذلك الوجه الصبيح يمشي مرتعاً للبلى وتلك النفس الكبيرة تقف عن العمل في هذه الدنيا ولو بقيت آثارها عاملة الى ما شاء الله. والمستميت في حب الكلية يدفن بعيداً عنها. ولكن لكل اجل كتاب ولا دافع لقضاء الله

ومَن كانت منيتهُ بارض فليس يموت في ارض سواها

حمل البرق الينا انهُ مريض ثم ان مرضهُ اشتدّ حتى لا يرجى ثم ان المنية انشبت فيهِ اظفارها في الخامس من مايو الماضي فذهب في طريق كل حي. فنعيناهُ في المقطم لاصدقائهِ في هذا القطر وسائر الاقطار التي انتشر فيها تلامذتهُ. واجتمع ابناء الكلية في القاهرة وابّنوهُ وارسلوا كتاب تعزية الى عائلتهِ في اميركا والى المدرسة الكلية في بيروت واتفقوا على جمع المال الكافي بالاكتتاب لاقامة تمثال لهُ في المدرسة الكلية واحتفل ابناء المدرسة في مدينة بيروت بتأبينهِ وصائم فعلوا ذلك في اماكن اخرى

وبينما نحن مهتمون بجمع المواد اللازمة لكتابة سيرتهِ ونشرها في المقتطف وافتنا مجلة الكلية وفيها كلام مسهب عنهُ باللغة الانكليزية يدل على ان الذين انشأوهُ واقفون احسن وقوف على سيره وسيرتهِ فلم نرَ افضل من ان نقتطف منهُ ما يلي

١

ان المدة التي رأس فيها المدرسة الكلية من سنة ١٩٠٢ الى ١٩٢٠ هي المدة التي زاد اتساع المدرسة الكلية فيها زيادة بالغة. قد بدأ هذا الاتساع في عهد والده الجليل الدكتور دانيال بلس فبلغ عدد التلامذة الاخير في عصره نحو ٦٠٠ تلميذ ولكن من سنة ١٩٠٢ الى ١٩١٥ نما من اقل من ستماية الى نحو الف تلميذ ولولا الحرب لزاد عدد التلاميذ ايضاً زيادة كبيرة. ولم تقتصر الزيادة على عدد التلامذة بل زادت سعة البلدان التي قصد ابناؤها المدرسة الكلية حتى لقد اتاها بعضهم من جنوب اميركا الجنوبية وبولندا وسيبيريا وملقا وبلاد الحبشة والسودان . وزاد عدد المدرسين من اثنين واربعين الى اكثر من مئة . وانشئت فيها فروع جديدة فرع لتعليم الممرضات وفرع لتعليم علم التعليم وفرع لتعليم طب الاسنان وفرع لتعليم الهندسة الزراعية .وكان عدد مباني الكلية احد عشر فصار ستة وعشرين بناء. وهذا بعض ما تم من التوسع المادي والاداري في الكلية مدة رآسته

٢

وكانت البلاد قد ادركت ان المدرسة الكلية من المنشآت التي لها شأن كبير فاعترفت بذلك في مدة رآسته اعترافاً صريحاً على اساليب شتى فاولاً سمحت الحكومة العثمانية بان الامتحان الطبي يقام سنوياً في المدرسة الكلية نفسها بدلاً من ذهاب التلامذة الى الاستانة فتأتي لجنة من الاطباء الى المدرسة تمتحن التلامذة وجعلت المدرسة الكلية بكل فروعها جزءاً من نظام التعليم المنتشر في كل السلطنة العثمانية واعفيت مبانيها واراضيها من الضرائب . وثانياً ادى حفظ المدرسة الكلية سليمة كل مدة الحرب الى اشتهار صيتها في كل السلطنة العثمانية وعلم الجمهور حينئذٍ من نمو مبادئها ما لم يكن يعلمهُ من قبل. فان الدكتور بلس ابدى كل مدة الحرب ما يدل على ان المدرسة مخلصة للبلاد التي هي فيها معتقداً ان البلاد يحق لها ان تطلب من الكلية وهي معهد للتربية على مثال سائر معاهد السلطنة العثمانية ان تؤدي الطاعة التامة ما دامت هذه الطاعة لا تخالف مبادئها الاساسية

وقد اكتسب بصراحته ومهارته ثقة كبار رجال الحكومة وكلهم كثير الشبهات

او قليلها في معهد يمثل المبادىء الاجتماعية والدينية التي للحلفاء اعدائهم . وكانت الحجة القاطعة التي استخدمها في نفي الشبهات ونحو آثرها عظم الخدمة التي اداها خريجو الكلية في الماضي لبلادهم ولاسيما ان كثيرين منهم أسندت اليهم في الحرب مناصب عالية لا تسند الا الى الذين يوثق بهم

٣

وكانت مدة رآسته ممتازة بمميزات خاصة موسومة بترقية مبادىء الكلية واعلاء اسمها وزيادة اثرها في البلاد التي تخدمها . وهذه المبادىء اما تعليمية واما روحية واما مدنية واما ادارية

فاما المبادىء التعليمية فان صاحب الترجمة كان يرى في شأنها ان مهمة الكلية الاولى انما هي تنوير عقول الشعوب المختلفة في الشرق الادنى تمهيداً لتجديدهم واحيائهم اجتماعياً وادبياً . فرأى بعين بصيرته شدة حاجة الشرق الى التربية على الطرق العلمية وان الملاحظة الدقيقة والاستدلال الصحيح اللذين يعتمد عليهما في غرف الدرس هما خير الوسائل لتطبيق الطريقة العلمية على مشاهد الحياة الانسانية . على انهُ وجَّه همهُ بنوع خاص الى الوجه التهذيبي من وجوه التعليم في الكلية شاعراً بان هذه البلاد في حاجة الى العلوم الادبية حاجتها الى العلوم الطبيعية . وكان يوسع على الطلبة في الفرق التي وجد وقتاً لتعليمها طريقة البحث الحر في افكار اهل العصر الحاضر والماضي

المبادىء الروحية — قلنا ان الرئيس بلس كان يرى ان مهمة الكلية الاولى التعليم العصري ولكنهُ في الوقت نفسهِ جعل غرض الكلية الديني المحك الاخير الذي تقاس بهِ حركاتها وسكناتها . وبعبارة اوضح سعى ليري كل تلميذ من تلاميذ الكلية على اختلاف اديانهم ان الدين من الامور الحقيقية فيها وانهُ يجب على كل تلميذ ان يربي في نفسهِ ملكة التدين . وكان لهُ اليد الطولى في رسم خطة دينية للكلية فصارت فريدة في بابها من هذا القبيل بين مدارس المرسلين . ومعلوم ان طلبة الكلية ينتمون الى اديان مختلفة بين بعضها تحاسد وتنافس قديم العهد فكانت خطة الرئيس انماء روح الاخاء وحسن الظن . وابان بصراحة وجلاء ان الكلية لا تمثل حزباً معيناً او مذهباً خاصاً من المذاهب الدينية

اعتقاداً بان الناس على اختلاف اديانهم يمكن ان تجمعهم جامعة وثيقة العرى وهي جامعة التبحّر في القوى الروحية . فالكلية على شدة تشبثها بالتدين اجتنبت كل دعوة الى دين من الاديان يراد بها الحط من شأن غيره . نعم انها هي نفسها جاهرت امام طلبتها باعتناقها تعليم السيد المسيح في الله والعالم لم تحد عنهُ قيد شعرة ولكنها في الوقت عينهِ دعت كل تلميذ من تلاميذها ان يهتمّ من جديد بادارة دفة حياتهِ الدينية حسب التقاليد والمبادىء التي يراها افضل من غيرها واكثر ملاءمة لفطرتهِ

المبادىء المدنية — كذلك أبان لابناء البلدان المختلفة في الشرق الادنى عظم شأن المبادىء المدنية التي تنادي الكلية بها ولاسيما ان نهضة الروح القومية هي اعظم مظاهر العصر الجديد . فقال ان الشرط الاول على كل تلميذ يروم الانتظام في سلك هذه القومية ان يشعر بالمسئولية في كل عمل يدعى اليهِ من الاعمال العمومية . وانهُ يجب على كل تلميذ ان يطيع قوانين حكومتهِ بولاء واخلاص مهما تكن ثقيلة عليهِ بشرط ان لا تناقض المبادىء الادبية الاساسية تناقضاً لا مجال فيهِ للتأويل . فكانت سياسة الكلية ان تنهى كل تلميذ فيها عن الاشتراك في حركات الثائرين على الحكومة واعمالهم ههنا كان نوعها . فاذا ثبت لها ان تلميذاً من التلاميذ خالف نواهيها من هذا القبيل طردتهُ حالاً . فقد يُؤثر الجنوح الى الثورة اذا كان الجانحون اليها رجالاً اهل خبرة واسعة ومع ذلك فان المسئولية التي يتحملونها هائلة لا يسوغ تحملها الاّ اذا اخفقت جميع الوسائل المشروعة لنيل الاصلاح . وعليهِ فان ارفع مبدإٍ مدني يجب على الطالب ان يجعلهُ نصب عينيهِ وهو يستعدُّ في المدرسة للقيادة والزعامة فيما بعد ان يطيع قوانين البلاد التي يعيش فيها طاعة شعارها الولاء والاخلاص

وبناء على ذلك قاوم الرئيس بلس في تنفيذ هذه الخطة كل محاولة من جانب الطلبة يراد بها التخلص من الخدمة العسكرية المشروعة . وعليهِ بات مدة الحرب صاحب الكلمة المسموعة عند رجال العسكرية فكانوا يقبلون رأيهُ في تلامذتهِ من هذا القبيل بلا بحث ولا سؤال . وفاز فوزاً غير معتاد بحمل اهل الشان على الاعتدال والانصاف في تفسير القوانين العسكرية فتساهلوا معهُ كثيراً في معاملة

الطلبة الحديثي العهد في المدرسة واعفوا بعض الفرق في المدرسة اعفاء وقتياً من الخدمة العسكرية اذ أبان لهم ان هذا الاعفاء في مصلحة الجيش

على ان توسمهُ هذا في تفسير الولاء المدني المطلوب من التلاميذ لم يقع غالباً موقع القبول عند سكان سورية الوطنيين والاجانب على السواء لانهم اساؤوا فهمهُ . ولكن هذه المبادىء اصبحت الآن خطة عمومية معينة الحدود اعلنت ادارة الكلية انها ستؤيدها وتجري عليها في عهد التجديد السياسي والاجتماعي القادم مهما يكن شكل حكومة البلاد

المبادىء الادارية — اشتهرت رآسة صاحب الترجمة فوق ذلك كلهِ بالمبادىء الادارية التي لم يحد عنها البتة في تولي شؤون الكلية وادارة دفتها . وفي هذه المدة قسمت ادارة الكلية الى دوائر مختلفة وعين لها رؤساء نيطت بهم مسئولية اعمال كثيرة وفتح امامهم مجال واسع لادارة شؤون دوائرهم . وبهذه الوسيلة اصبح في الكلية بضع دوائر للادارة الذاتية او الحكم الذاتي اقدر على النظر في التفاصيل الكثيرة التي تنطوي عليها من الادارة العليا المسماة « العمدة العامة » او الادارة العامة

وربما كان اظهر مظاهر ادارتهِ تركهُ لاعضاء عمدة الكلية حرية المناقشة وابداء ما يعنُّ لهم من الآراء بصراحة تامة

٤

وقد رأى بعد طول خبرتهِ ان تغيير اسم « المدرسة الكلية السورية الانجيلية » الى « الجامعة الاميركية » اعظم بياناً لصفتها الحقيقية ونفوذها في الشرق الادنى . فان مناحيها المتعددة ومقياس تلمذتها والمبادىء السائدة فيها — هذا كلهُ من شأن جامعة تديرها قوى هي اسمى ما في الهيئة الاجتماعية الاميركية وارفع شأناً لانهُ آن الاوان في دور نشوء هذه البلاد لابانة ما لاميركا من النصيب الاوفر في ترقية حياتها الوطنية انتهى باختصار